# استخلاف الإنسان في الأرض بوصفه مقصداً عاماً للقرآن والشريعة والحضارة

عبد السلام محمد الأحمر*


**الملخص**

يحاول البحث التوصل إلى اقتراح مقصد عام مؤطر لجميع المقاصد القرآنية، وقادر على تجلية نسقية الخطاب القرآني، وذلك استناداً إلى المقصد الأساس لله تعالى من خلق الإنسان حراً مسؤولاً عن نفسه ووجوده الدنيوي والأخروي. ويُبيِّن البحث أن هذا المقصد الأساس هو استخلاف الله الإنسان في الأرض، ثم يسعى إلى بيان مدى ملاءمة المقصد الاستخلافي لتأطير المقاصد الإلهية الشاملة، ولا سيما مقاصد القرآن والشريعة والحضارة، فضلاً عن إبراز مدى قدرة الاستخلاف على استيعاب مختلف الاتجاهات الفكرية الإنسانية، وتحفيز الإنجاز العمراني الإسلامي.


**الكلمات المفتاحية**: المقصد العام الموحد، الاستخلاف الإيماني، الاستخلاف الوضعي، الخليفة عن الله في الأرض، العمران الإسلامي.

**Vicegerency of Man on Earth as a General Intent (*Maqsid*) Prescribed in the Qur'an and *Sharia*, and Required for Civilization**

**Abdussalam Al-Ahmar**


**Abstract**

This paper tries to identify a general intent that encompasses all the Qur'anic intents, and demonstrates a systematic discourse of the Gracious Qur'an. This attempt is based on what we think Allah's purpose of creating a free and responsible Man in his existence on earth and the hereafter.

The paper shows that this general intent is the Vicegerency of Man on earth, and that this intent is a frame of reference to all intents of the Gracious Qur'an, the Shari'a and civilization. Furthermore the paper shows that the concept of Vicegerency would highlight the extent to which it accommodates different human intellectual trends, and stimulates Islamic civilizational accomplishments.


**Keywords**: Unifying general intent, Faith based vicegerency of Man, Positivist-based vicegerency, *Umran* (Islamic civilization).

---

* ماجستير في الفكر والحضارة من جامعة محمد الخامس في الرباط، والشهادة العليا للدراسات الإسلامية من مؤسسة دار الحديث الحسنية، ودبلوم مشرف تربوي من المركز الوطني لتكوين مفتشي التعليم. البريد الإلكتروني: elahmerab@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ١٥/١٠/٢٠١٦م، وقُبل للنشر بتاريخ ١٥/٣/٢٠١٧م.

**مقدمة:**

يهدف البحث إلى إبراز إمكانية الانطلاق في دراسة المقاصد الإسلامية، من مهمة استخلاف الإنسان في الأرض، بوصفه المقصد الأساس لله من خلق الإنسان القادر على الاختيار، والعناية بنفسه، والاضطلاع بمسؤولية وجوده الدنيوي على الأرض، ومصيره في الآخرة؛ وذلك في اتجاه بناء منظومة للمقاصد الإلهية التي تشمل دائرة الإسلام وخارجها، والتي تملك القدرة على استيعاب مختلف الاتجاهات الفكرية والحضارية الإنسانية.

ويقوم البحث على مفهوم راجح للاستخلاف، ويعتمد منهجية قائمة على التتبع والاستقراء للنصوص والمقاصد الشرعية؛ لإثبات مدى استيعاب مقصد الاستخلاف لغيره من المقاصد الإسلامية القرآنية والشرعية والحضارية، وذلك ببيان ارتباط أهم المقاصد العامة في هذه المجالات بمقصد الاستخلاف.

وتبرز أهمية هذا البحث بما سيفتحه من آفاق، منها: الانتقال من الكلام عن تعدد المقاصد العامة أو الكلية للقرآن الكريم أو الشريعة أو الحضارة، كما هو معتاد فيما كُتِب عن هذا الموضوع إلى اليوم، إلى تحديد مقصد أساسي موحد لها، تتفرع عنه جميع تلك المقاصد العامة أو الكلية، وكذا بيان أهمية الانطلاق من الاستخلاف مقصداً أساسياً للمقاصد القرآنية والشرعية والحضارية، في تعبئة النفس بوعيٍ ومسؤولية؛ لحسن فهم القرآن والشريعة الإسلامية، وحسن تمثل هديهما في الحياة، والمشاركة بفاعلية في تحقيق التنمية الشاملة، واستئناف الإنجاز الحضاري.

وكان الباعث على اقتحام هذا الموضوع أن غالب الاجتهادات المقدمة في بيان المقاصد القرآنية تنطوي على فوائد كبيرة وإضافات معرفية نوعية، إلا أنها تكاد تشترك جميعها في عدم تجاوز الكلام عن المقاصد المتعددة إلى استنتاج مقصد عام واحد يشملها كلها.

وأمَّا التي تحدثت منها عن مقصد واحد عام في موضع فقد جاءت بمقصد أو اثنين عامين آخرين في موضع ثانٍ، من دون بيان العلاقة بينها، وما إذا كان يمكن لأحدها أن يستوعب الآخرين.

فنجد مثلاً العز بن عبد السلام يؤكد أن معظم مقاصد القرآن الكريم تدور حول الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها. وهو يقصد بالمصالح مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة، التي هي الخلود في الجنان ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم.[١]

وفي هذا الكلام إقرار صريح بوجود مقاصد أخرى لا تدخل ضمن هذا الشأن باكتساب المصالح والزجر عن المفاسد. ويرى ابن عبد السلام أن "أجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (النحل: ٩٠)." غير أن المقصد من نزول القرآن الكريم أكبر من مجرد أوامر ونواهي لتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

وفي توجُّه آخر نحو تلمُّس نظرة شاملة لمضمون القرآن الكريم، أو صياغة مقصد عام له، يقول: "وقد نظرت في القرآن فوجدته ينقسم إلى أقسام؛ أحدها: الثناء على الإله، والثاني: الأحكام، والثالث: توابع الأحكام ومؤكداتها، وهي أنواع ذكر منها ثمانية."[٢] فهذه الأقسام الثلاثة قد تفضي إلى صياغة مقصد عام للقرآن الكريم، لكنها أيضاً تمثل الصعوبة في اعتمادها وأمثالها لبلورة مقصد عام واحد لمضمون كتاب الله، وربما كان ذلك هو ما يصرف عن التفكير في إرجاعها لمقصد واحد وموحد.

ومثلما تطرَّق القرآن الكريم إلى الحديث عن الله تعالى وشرعه فقد تكلَّم عن عباده المُكلَّفين، الذين يملكون القدرة على الامتثال لأحكام الله ومخالفتها في الآن نفسه، وهو ما يمثل الحكمة السابقة المهيمنة على كل المقاصد.

وأمَّا الطاهر بن عاشور فقد أَولى مقاصد القرآن المجيد عناية خاصة في تفسيره "التحرير والتنوير"، فاهتم بذكر مقاصد السور؛ إذ قال: "ولم أغادر سورة إلا بيَّنت ما

[١] ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤١٤هـ/١٩٩١م، ج١، ص٨.

[٢] المرجع السابق، ج١، ص١٦٢.

أحيط به من أغراضها؛ لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فِقَر متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله."[٣]

وقدَّم ابن عاشور تصوره للمقصد العام للقرآن، فحصره في إصلاح الإنسان فرداً وجماعةً؛ ليضطلع بأعباء الإصلاح العمراني الشامل، يقول في ذلك: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافةً؛ رحمةً لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية، والعمرانية."[٤] ثم بيَّن أن تشريعات القرآن (اعتقاداً، وعبادةً، وأخلاقاً) هي وسائل لتحقيق الصلاح الإنساني الضروري للصلاح العمراني.

ولكن الصلاح الإنساني الذي قصده القرآن الكريم ودعا إليه لا يتحقق في الواقع إلا بإرادة الإنسان، وإدراكه أبعاد مسؤوليته عنه في حياته وبعد مماته. ولكي تكتمل صياغة هذا المقصد القرآني العام؛ فلا بُدَّ من استحضار مسؤولية الإنسان المُكلَّف بتفعيل محتوى القرآن على مستوى النفس والواقع.

وهكذا ظل حديث علمائنا الأولين والآخرين عن مقاصد القرآن على هذا المنوال مقتصراً على التوسع في تعدادها، وحتى لو راموا حصرها في مقاصد عامة محددة ما أبانوا إمكانية اعتمادها في صياغة منظومة مقاصدية متماسكة.

وقد حاول طه جابر العلواني حصرها في خمسة مقاصد، هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، والأُمة، والدعوة، ثم اختزلها في ثلاثةٍ، هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، التي أرى أنها قد تعد مقاصد فروعية كبرى لمقصد واحد، هو مقصد استخلاف الإنسان على الأرض، الذي يشملها كلها، ويؤطرها بصورة واضحة.

وأمَّا الدراسات والأبحاث المعاصرة التي تُقدَّم في ملتقيات علمية تتناول مقاصد القرآن الكريم، فإنها تختص غالباً بإبراز جوانب من مقاصد القرآن الجزئية، مثل: مقصد العدل،

---

[٣] ابن عاشور، محمد الطاهر. **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١، ص٨.

[٤] المرجع السابق، ج١، ص٣٨.

والرحمة، والأمن... ونادراً ما تتطرَّق إلى المقاصد الكلية، أو تقوم بذلك من دون الإشارة إلى مقصدها الشامل المؤطر لدراستها. وقد تتجه بعض الأبحاث إلى تأكيد أهمية الانتقال من النظر التجزيئي الموقع في السطحية المعرفية إلى مكابدة النظر الكلي القادر على تسديد فهم مقاصد الوحي، وحسن تنزيل هديه في الواقع المعاصر، ومع ذلك فإنها لا تخطو خطوات حاسمة في هذا الصدد. ولذلك عندما أُنعِم النظر في هذه الأبحاث النافعة أزداد اقتناعاً بأهمية استثمارها في بلورة مقصد عام واحد تتصل به جميع مقاصد القرآن والشريعة والحضارة.

## أولاً: المفهوم الراجح للاستخلاف ومسوغات اختياره مقصداً أساسياً للمقاصد الإسلامية والإنسانية

### ١. المفهوم الراجح لاستخلاف الإنسان في الأرض:

### أ. تفسيرات العلماء السابقين لمعنى الاستخلاف:[٥]

اتجه تفسير جمهور العلماء في تحديد معنى استخلاف الإنسان إلى أن مجيئه كان بعد مَن عاش قبله على الأرض من الكائنات الأخرى التي أفسدت فيها، وسفكت الدماء. وقد فُسِّر أيضاً بتوالي وجود البشر على الأرض جيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم آخرين عند امتلاك أسباب السيطرة والبأس، واستعمار الأرض، والغلبة على مَن دونهم. وهكذا أورد المفسرون لمعنى "خليفة" معنيين:

الأول: أنه تعالى لـمَّا نفى الجن من الأرض، وأسكن فيها آدم عليه السلام، كان خليفةً لأولئك الجن الذين تقدَّموه.

الثاني: إنما سمَّاه الله خليفةً؛ لأنه يخلف الله في الحكم بين الـمُكلَّفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي يستند إلى قوله تعالى عن داوود

[٥] الأحمر، عبد السلام. **الاستخلاف في الأرض: نحو رؤية قرآنية كلية**، ضمن: **أعمال الندوة الدولية: القرآن الكريم ورؤية العالم: مسارات التفكير والتدبير**، سلسلة ندوات علمية (٧)، تنظيم الرابطة المحمدية للعلماء، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص٣٠٢.

عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).[٦]

وقد استبعد آخرون أن يكون الإنسان خليفة لله؛ إذ الخلافة في اللغة تعني النيابة عن الآخرين، ولا بُدَّ فيها من استخلاف المُستخلِف للمُستخلَف، وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا المعنى. وعلى هذا، فإن "الخلافة النيابة عن الغير إمَّا لغيبة المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه."[٧] وكل هذه المعاني مجافية لكمال الله واستغنائه عن المعين والنائب. يقول ابن تيمية: "والله لا يجوز له خليفة؛ ولهذا لمَّا قالوا لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك."[٨] ويقول ابن قيم الجوزية: "إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة منها، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله، فهذا لا يمتنع فيه الإضافة، وحقيقتها خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره."[٩] ثم يشرح معنى إضافة الخليفة إليه سبحانه، قائلاً: "فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ (الحجر: ٤٢)."[١٠] وفي هذا السياق يكره وصف السلطان بأنه "خليفة الله، أو نائب الله في أرضه؛ فإن الخليفة والنائب إنما يكون عن غائب، والله سبحانه وتعالى خليفة الغائب في أهله، ووكيل عبده المؤمن."[١١]

فهذا الاتجاه في التفسير يحصر الخلافة فقط في التعاقب على الأرض، أو تولية الإمارة والرياسة على الناس، ولا يرى في الخلافة عن الله إلا مفهوم النيابة، الذي يستحيل في

---

٦ الرازي، فخر الدين. **مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج٢، ص٣٨٩.

٧ الكفوي، أبو البقاء. **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت، ج١، ص٦٧٠.

٨ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس. **الفتاوى الكبرى**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ج٥، ص١٢٢.

٩ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ج١، ص١٥٢.

١٠ المرجع السابق، ج١، ص١٥٢.

١١ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت-الكويت: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، ط ٢٧، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج٢، ص٤٣٤.

حقه تعالى، مع احتمالها معنى النيابة في حدود ضيقة، يمنح فيها الإنسان حرية الاختيار التي يكون بها مسؤولاً عن إرادته ومعتقده وسلوكه خلافاً لباقي المخلوقات.

والحرص على استبعاد معاني النيابة عن الله من دلالات الاستخلاف، صرفه غالباً إلى مجرد التعاقب على الأرض جيلاً بعد جيل، أو حضارة بعد أخرى؛ ما حال دون استحضار المعاني الجليلة القدر التي يشتمل عليها، والتي تبرز مكانته السامية وأساسيته في تجلية حقيقة الإنسان، ومسؤوليته الجسيمة على ظهر الأرض، ومركزه المرموق بين الكائنات، وذلك باستعراض سياقات وروده في الخطاب الشرعي، وهو ما يمكن ملاحظته في الآيات الكريمة التي تطرّقت إلى موضوع الاستخلاف: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩)، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾ (الأعراف: ٧٤). وفي الحديث الشريف: "أمَّا بعد، فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون."[١٢] فالاستخلاف -بحسب هذه النصوص- يقوم على إطلاق حرية الإنسان على الأرض ليصلح إن شاء، ويفسد إن شاء، تحت عين الله الذي يراقب عمله، ويحصيه عليه، ثم يجزيه به يوم الحساب نعيماً أو جحيماً.

وبهذا الفهم، فإن الاستخلاف هو منح الله تعالى الإنسان مسؤولية الاختيار والفعل في الحياة الدنيا، ثم يتولّى محاسبته على اختياراته وأفعاله في الدار الآخرة، وكأن الإنسان خلف الله تعالى في جانب ضئيل ممَّا هو من شأنه الخاص، المتعلق بتدبير أمر الخلائق كلها، ولم يستثنِ من ذلك إلا الإنس والجن اللذينِ وكّل حيزاً ضيقاً من تدبيره المطلق إليهما، وهو المتعلق بالصيرورة السلوكية للذات الإنسانية وعملها العمراني، بحيث تصنع مصيرها بنفسها على الأرض، وفي العالم الآخر.

وهكذا تأخذ خلافة الإنسان عن الله بُعْداً أخطر وأشرف في ذات الوقت، "بمعنى أن الله تعالى قد أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه، وعلى ما في

---

[١٢] ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، د.م: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١٧، ص ٢٢٧، وضعفه الألباني.

الوجود، وفي الأرض التي خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى."[13]

فهذا استخلاف بالمعنى العام يؤكد أن الآدميين مُفضَّلون عمَّا سواهم من المخلوقات الأخرى؛ بالنيابة عن الله في بعض اختصاصه وشأنه العظيم، الذي ليس لأحد من خلقه أن يخالف فيه إرادة الخالق في قليل أو كثير، ولا يسعه إلا الطاعة الكاملة، والإقرار بفضله على الخلائق، وتدبيره لما دق وجل من أمرها، فهو سبحانه يوجدها من العدم على النحو الذي تقتضيه حكمته، ويحدد لها مهمتها في الوجود بمحض إرادته من دون شريك أو معين، ولا تملك حق الاعتراض عليه أبداً.

ولكن الله تعالى شاء أن يخلق الإنسان، ويعرض عليه أمانة تقرير مصيره وتشكيله بإرادته الحرة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، بحيث يكون في وسعه أن يعترف بألوهية الله أو يرفضها، وأن يطيعه أو يعصيه، وأن يُعبِّر عن موقفه الخاص في كل ما يتعلق بحياته الشخصية أو الاجتماعية، وأن يتحمل مسؤولياته كاملة عمَّا يفعل أو يترك، وعمَّا يحب أو يكره، وأن يسعد ويهنأ بحسن فهمه وسديد رأيه، ويجني ثماره في العاجل والآجل، أو يشقى ويخزى إذا أساء التقدير، فخالف قانون الخالق وتدبيره وحكمته من خلقه.

## ب. الاستخلاف بمعنى تحمل مسؤولية الحكم والقيادة:

بعد الحديث عن الاستخلاف العام، ودلالته على حرية الإنسان المقيدة بمسؤوليته عن مختلف أعماله فوق الأرض، ومحاسبته عليها بين يدي الله في الدار الآخرة، نتحدث عن الاستخلاف بمعنى تولِّي المسؤولية العامة على الناس؛ سواء أكان ذلك من شخص على قومه، أم من أُمة على غيرها من الأُمم والشعوب.

فالفرد الذي يستخلفه قومه عليهم يتحمل مسؤولية عظيمة، تتعلق بتدبير شؤونهم العامة، فتصلح أمور الناس بصلاحه وإقامته العدل، وقيامه بالمهام الموكولة إليه بأمانة وإخلاص وكفاءة، أو يفسد نظام المجتمع بفساده وانحرافه وضعف كفاءته، وتسوء أحواله، وتفشو فيه المظالم والقلاقل.

---

[13] أبو زهرة، محمد. **زهرة التفاسير**، د.م: دار الفكر العربي، د.ت، ج١، ص١٩٤.

قال تعالى مخاطباً داوود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص: ٢٦). فداوود هو خليفة عن الله من حيث هو إنسان تجمعه صفة الاستخلاف الأصلية مع كل الناس، ولكنه ينماز عنهم بأنه خليفةٌ بتكليف من الله على قومه، يحكم بينهم بالحق والعدل تطبيقاً لشرع الله، في إطارِ ما آتاه الله من النبوة والملك. فكل إنسان خليفة عن الله في حكم نفسه بنفسه، وقد يضيف الله إليه -فضلاً عن تدبير أمر نفسه- تدبير أمر غيره؛ من: زوجة، وأولاد، وأناس آخرين في مهنته الخاصة، أو من خلال تولِّيه مهام إدارية عامة؛ مديراً، أو حاكماً، أو أميراً.

وقد يستخلف الله قوماً على غيرهم؛ استحقاقاً لهم على قدر التزامهم بالاستقامة على شرع الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥)؛ فقد وعد سبحانه أن يمنح المؤمنين أسباب النصر والغلبة، وأن ينالوا صفة التمكين لدينهم والأمن والاستقرار في أوطانهم، فإذا تراجعوا عن التمسك بهدي الدين، وتساهلوا في العمل به، دبَّ إليهم الوهن والفساد، وخسروا العزة في دنياهم والفوز في أُخراهم.

والاستخلاف تكليف واختبار للفئة المؤمنة، التي إذا تهيأت لها ظروف الريادة والقيادة لغيرها من الأُمم الأخرى، وحكَّمت شرع الله، وأصلحت دنيا الناس بمنهج الله القويم، دام لها المجد والسؤدد، وإذا تقاعست عن ذلك، وأخلَّت بشروط الاستخلاف الإسلامي، انتكست وخابت، وصارت محكومة بغيرها بعد ما كانت حاكمة لغيرها. وهذا من سنن الله الجارية التي لا تتخلف في الزمان والمكان، والتي يمكن ملاحظتها في كل النصوص الشرعية التي تطرَّقت إلى موضوع الاستخلاف، مثل قول هود لقومه عاد: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ٦٩). فما من أحد يحيد عن أداء أمانة الاستخلاف العام في الأرض إلا استبدل الله به غيره، ممن تؤول إليه الهيمنة على شؤونه العامة والخاصة.

## ت. الاستخلاف بمعنى النيابة بين الناس في تأمين مصالحهم الفردية والجماعية:

إن الخلافة بمعنى النيابة في إطار حرية الإنسان ومسؤوليته، تتسع أيضاً لخلافة بني الإنسان بعضهم عن بعض؛ فرد عن جماعة، وجماعة عن فرد، وأفراد عن أُمة، وجيل عن جيل، وخلف عن سلف. فالحاكم يخلف الشعب في تدبير شؤونه العامة. وكل فرد يمارس الخلافة من خلال مهنته أو وظيفته المعلومة في المجتمع؛ لتأمين خدمة معينة لمصلحة غيره من الناس، نيابةً عنهم؛ وذلك لاستحالة توفير الفرد حاجاته كلها وحده؛ إذ تتكامل جهود البشر على ظهر الأرض، بدءاً بالقرية والمدينة -في إطار الدولة- وانتهاءً بالعالم أجمع.

وأمَّا العلماء ورجال الفكر والتربية والتوجيه فيخلفون الأُمة في رعاية تدينها، وحمايته من تسرب الانحراف إليه؛ سواء على مستوى الفهم أو السلوك. ويشهد لهذا النوع من الاستخلاف نصوص شرعية منها: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وفي الحديث الشريف: "مَن جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلَف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا."[١٤]

والاستخلاف بهذا المعنى -كغيره من أنواع الاستخلاف الأخرى- يتوقف على كيفية ممارسة كل فرد للأمانة، التي هي أساس الاستخلاف في الأرض، ومدى تمثل قيمها المختلفة، مثل: الصدق، والنزاهة، والمسؤولية، والإتقان... إذ يتأرجح حال الإنسان بين الصلاح والفساد تبعاً لتحلّي النفس بالأمانة، أو تخلّيها عنها، واتباع أهواء النفس وشهواتها.

---

[١٤] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٤، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل مَن جهَّز غازياً أو خلفه بخير، حديث رقم٢٨٤٣، ص٢٧.

### ٢. مسوغات اعتبار الاستخلاف مقصداً عاماً للمقاصد الإسلامية:

#### أ. أسبقية مقصد الاستخلاف على غيره من المقاصد:

بيَّن الله تعالى مقصده من خلق الإنسان حين أخبر الملائكة أنه سيستخلفه في الأرض، وقد تعرَّف الملائكة طبيعة هذا الإنسان التي اختُص بها من دون باقي الخلائق، وأنه سيكون من أفعاله الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، التي هي نتيجة ما يتصف به من الحرية والمسؤولية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠). وهاتان الصفتان (الحرية، والمسؤولية) هما ما يتمكن بهما الإنسان من حمل الأمانة التي استثقلتها السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ومن ثَم فإن مقصد استخلاف الإنسان في الأرض هو أساس كل مقصد يأتي بعده، فلا يمكنه أن يخرج عن إطاره، أو يختلف عنه في قليل أو كثير، لكنه سيكون -بالضرورة- بياناً وتفصيلاً لما يختزله مفهوم "الاستخلاف" من معانٍ ومسؤوليات وغايات مُبيِّنة وشارحة لحقائقه وكلياته وجزئياته. بل إن حقيقة مقصد الاستخلاف هي تحميل الإنسان أمانة الاختيار في الحياة الدنيا، بين الإحسان والإساءة فطرةً وعقلاً، عند عدم بلوغ الوحي إليه، وبين الإيمان والكفر عند وجوده، وبعد مرحلة الدنيا التي تليها محاسبة الله على الاختيارات، وتحمل تبعاتها في الآخرة.

#### ب. ارتباط الاستخلاف بمسؤولية الإنسان:

لقد أحيط حدث استخلاف الإنسان بما ينبئ عن عظم شأنه، وخطر أمره، وأنه حدث جلل، يدل على ذلك إخبار الله الملائكة به، وتساؤلهم الذي ينطوي على استغرابهم الواضح تجاهه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

فقد علمت الملائكة من خصائص هذا الكائن الـمُستخلَف أنه -خلافاً لما هم عليه من الطاعة الخالصة لله تعالى- يملك جرأة فائقة على معصية الله تعالى عن طريق الإفساد في الأرض وسفك الدماء. "ولا شك أن تساؤلهم نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والإرادة المطلقة، وكون هذا العلم المصرف للإرادة لا يحصل إلا بالتدريج، وكون عدم الإحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضي إلى سفك الدماء كما تقدَّم."[١٥]

وقد توالت الآيات القرآنية التي تصف الملائكة بالانقياد التام لأمر الله الذي لا يشوبه زيغ أو فتور، كما هو شأن باقي المخلوقات في الكون، غير الجن والإنس، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ (النحل: ٤٩-٥٠).

فعندما "أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، فهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة، أن يكون ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تَعِنُّ له تكون بحسب علمه، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يُوجِّه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد... فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق، وسألوا الله تعالى معرفة البيان والحكمة."[١٦]

فالاستخلاف عن الله يرتبط أساساً بتمكين الله الإنسان من حرية التصرف في نفسه وفي الأرض، وفعل ما أمره به من واجبات وصالحات، وما نهاه عنه من محرمات ومفاسد، وذلك في دائرة ما منح من قدرات وطاقات محدودة، ثم المثول بعد ذلك بين يدي الله الـمُستخلِف له؛ لكي يحاسبه على الطريقة التي مارس بها مهام الاستخلاف؛ إحساناً، وإصلاحاً، أو إساءةً، وإفساداً.

---

[١٥] رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج١، ص٢١٧.

[١٦] المرجع السابق، ج١، ص٢١٣.

**ثانياً: بيان كون الاستخلاف مقصداً عاماً للقرآن والشريعة والحضارة**

**١. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للقرآن الكريم:**

يمكن القول إن أساس استخلاف الإنسان في الأرض هو ما زوَّده الله به من فطرة وعقل، يهتدي بهما -على وجه العموم- إلى التمييز بين المنافع والمضار، وبناء منظومة فكرية تُحدِّد تصوره لنفسه وللحياة من حوله، فإذا بلغه الوحي اعتمدت نفسه على الفطرة والعقل، فسلَّمت بأنه الحق والرشاد، واحتكمت إلى توجيهاته وبيِّناته، واهتدت بها في دروب الحياة، أو مالت إلى تكذيب بيِّناته، وحادت عن هديه ونهجه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

يقول عباس محمود العقاد: "الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأي وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع."[١٧] فالوحي المنزل أساس لـمَن بلغه، فآمن به وصدقه؛ لممارسة الاستخلاف في اتجاه الإيمان بالله وتحكيم شرعه، فيما جل ودق من سعي المؤمن على ظهر الأرض، الذي يوصله إلى سعادة الدنيا والآخرة. وبالمقابل، فإن الكفر بالوحي، وتنكُّب سبيله، واجتناب هديه، يمثل ممارسة أخرى للاستخلاف تفضي إلى شقاء الدنيا والآخرة.

فالاستخلاف الإنساني لا يخرج عن أحد مسارين: مسار يتوجه فيه الآدمي في حياته بهدي الوحي المنزل من الله، المبلغ على يد رسله الأخيار، وهو -في هذه الحالة- يناسب أن نسميه استخلافاً إيمانياً. ومسار يقوم على أساس عقلي محض، وهو ما يناسب تسميته بالاستخلاف الوضعي.

ولهذا، لـمَّا أنزل الله تعالى آدم وحواء إلى الأرض خاطبهما مُحدِّداً مهمتهما في الاختيار بين أحد طريقين؛ إمَّا اتباع دين الله وهديه المبين، وإمَّا الإعراض عنه والاكتفاء بالعقل وحده ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

[١٧] العقاد، عباس محمود. **الإنسان في القرآن**، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص٧.

يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (البقرة: ٣٨-٣٩). فكل المقاصد القرآنية تندرج بداهةً في إطار توضيح مقصد الاستخلاف الإيماني، وتفعيله، وتحديد مسؤولياته وتكاليفه العملية التي تمتد لتعم قضايا الحياة ومناشطها جميعاً.

ومن هذا المنطلق، يمكن تحديد علاقة كل مقصد قرآني بمقصد الاستخلاف، وفهمه في إطار مدلوله الذي يرتكز على مسؤولية المُكلَّف الثابتة عن إرادته وتصوراته وأفعاله؛ امتثالاً لبيانات الوحي وتحديداته. فالإيمان الذي هو الخطوة الأولى على نهج دين الله، والتعريف به وبيانه يعد من أول المقاصد القرآنية الكبرى، ويمثل المدخل الرئيس إلى الاستخلاف الإيماني؛ إذ يخرج به المرء من الجهل بالله إلى معرفته سبحانه، وإدراك صفاته وكمالاته وعلاقته بالمخلوقين، وتعرُّف مراده منهم، وحكمته من خلقهم وخلق الوجود من حولهم، وأنه تعالى خلق الدنيا وجعلها دار العمل والاختبار لبني آدم، وخلق الآخرة وجعلها دار الجزاء بالنعيم الأبدي، والعقاب بنار الجحيم.

والإيمان من حيث هو تصديق بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بتكاليف الشرع، يعد ممارسة للاستخلاف على مستوى النفس، التي استخلف الله الإنسان عليها، يزكيها ويوجهها لما يصلح لها ويسعدها دنيا وأُخرى، أو يفسدها بالكفر والشرك، ويدنسها بالمعاصي والآثام ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس: ٧-١٠).

فالله خلق النفس وجعلها قابلة للهداية والضلال، والطاعة والمعصية، والاستقامة والانحراف، والإيمان والكفر، وجعل مهمة الإنسان في هذه الحياة منحصرة في توجيهها نحو أحد الاتجاهين: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان: ٣). وقد فطر الله سبحانه ابن آدم على اختيار أحد المسلكين (الإيمان، أو الكفر) من تلقاء نفسه، وبقراره الخاص، بما يعني أن الإيمان فعل إنساني خالص، منح الله الإنسان حرية القيام به، فيُصدِّق خبر وحيه إن شاء، أو يُكذِّبه إن شاء، وهنا تتجلّى مسؤولية الإنسان في أكمل صورها، ويتضح معنى الاستخلاف وتمام حقيقته.

فإذا حسم اختيار الإيمان في قرارة نفسه، وأكد عزمه عليه، وباشر مقتضياته العملية، وواظب عليها، ولم يتقاعس أو يتوانى، فإن الله حينئذٍ يُحبِّب إليه الإيمان، ويُزيِّنه في قلبه،

ويُكرِّه له الكفر والعصيان ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ (الحجرات: ٧-٨). وكلما نوى الاستزادة من الإيمان والعمل الصالح أعانه الله، ووفَّقه على قدر صدقه وحرصه، في ابتغاء درجات أعلى من الطاعة والانقياد لشرع الله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ (محمد: ١٧).

وبالمقابل، فإذا تلقَّى الإنسانُ الوحيَ بالرفض والاعتراض على مضمونه، وأصر على الكفر به وجحود حقائقه، فإن الله -بعد ذلك- يُزيِّن له موقفه، ويُيسِّر له الاستمرار عليه، ويسوق له أيضاً ما قد يجعله يراجع نفسه، ويصحح اختياره، فإذا أبى إلا الغي والعناد، وصم آذانه عن سماع الحق والخضوع له، فإن الله تعالى -آجلاً، أو عاجلاً- يطمس على قلبه، ويمنعه الاستبصار والإنابة للرشد ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وهكذا نخلص إلى أن الإيمان هو ممارسة استخلافية تأسيسية لكثير من التصورات الفكرية وأفعال القلب والجوارح، التي دعا إليها القرآن الكريم، وصارت من مقاصده المعلومة، مثل: توحيد الله، والخوف منه، ورجاؤه، وذكره، والتوبة إليه، ودعاؤه، والتقوى، والإنفاق، وكل العبادات المفروضة، مثل: الصلاة، والصوم، والحج... وكل التكاليف القرآنية الأخرى، مثل: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتزام العدل، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والتفكر في آيات الأنفس والآفاق، وتولِّي المؤمنين، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتدبر القرآن.

وكل هذه المقاصد وأمثالها تعد امتداداً لمقصد الاستخلاف، وتطبيقاً سلوكياً له؛ فمن خلالها، وعن طريق الامتثال لها وتمثلها في الفكر والسلوك، يترسَّخ مقصد أساسي واحد، هو المسؤولية الاستخلافية التي تتخذ صوراً عدَّة؛ سواء كانت معتقدات قلبية، أو التزامات سلوكية، أو مزيجاً بينهما.

### ٢. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للشريعة الإسلامية:

إن استخلاف الله الإنسان على مدى وجوده الأرضي يعد أيضاً استخلافاً على شريعته، بحيث يؤمن بها، ويتفقه فيها، ويُطبِّق أحكامها في مجالات حياته المختلفة. وفي هذا النسق، فإن جميع مقاصد الشريعة العامة والجزئية لا يمكن إلا أن تكون موصولةً بمقصد الاستخلاف، وممثلةً له في واقع التدين؛ اعتقاداً، وعبادةً، ومعاملاتٍ.

ونُمثِّل لعلاقة المقاصد العامة للشريعة الإسلامية بمقصد الاستخلاف، فنسوق ما ذكره أبو إسحاق الشاطبي في بيان قصد الشارع في دخول المُكلَّف تحت أحكام الشريعة؛ إذ قال: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المُكلَّف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً."[١٨]

فاتباع أوامر الشريعة واجتناب نواهيها يقوي الإرادة في الاستقامة على الدين، ويحد من تأثير الأهواء وضغط الشهوات، ويصحح وجهة الاستخلاف الإيماني، ويحول دون الزيغ عنه، وذلك ما لا يتحقق إلا باستشعار الذات لمراقبة الله في السر والعلن، والاحتكام في كل الشؤون الفردية والجماعية إلى توجيهات الشريعة، والتزام الحذر الشديد من اتباع الهوى الذي يبتعد بالنفس عن هدى الله والحق المبين.

وما من مقصد من مقاصد الشريعة إلا ويرتبط تحققه بتحقق مقصد أسبق عليه وأوسع منه، وهو مقصد الله من خلق الإنسان؛ ليستخلفه في الأرض، ويُحمِّله مسؤولية العمل بالشريعة فهماً وتطبيقاً، فيثيبه على ما أحسن من عمل، وأخلص فيه القصد لله تعالى، ويؤاخذه على ما قصَّر فيه، وتراخى عنه. فكل مقصد عام للشريعة يقتضي إرجاعه إلى المقصد الإلهي الأصلي من استخلاف الإنسان في الأرض، وتكليفه بتحديد موقفه النظري والسلوكي من الوحي والشريعة المنزلة.

ونورد مثالاً آخرَ لمزيد من التوضيح؛ إذ قال العز بن عبد السلام: "ما أمر الله بشيء إلا وفيه مصلحة عاجلة أو آجلة أو كلاهما، وما نهى عن شيء إلا وفيه مفسدة عاجلة

[١٨] الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات**، تحقيق: أبو عبيدة آل سلمان، القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص٢٨٩-٢٩٠.

أو آجلة أو كلاهما."[١٩] وهذا يدل على أن من مقاصد الشريعة العامة تحقيق المصالح وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها.

ولكن يلزم وضع هذا المقصد في إطار المقصد الإلهي الأسمى من خلق الإنسان والحياة الأرضية، وهو تحميل الإنسان أمانة الاستخلاف في الأرض؛ إذ إن جلب المصلحة ودفع المفسدة يعد تكليفاً مقصوداً لله من خلق الإنسان، وإنزال الشرائع. صحيح أن الله تعالى لا يعجزه تحقيق جميع المصالح الإنسانية، وإعدام المفاسد كلها، بيد أن حكمته ومشيئته اقتضت أن يَكِل أمر ذلك إلى الإنسان، ويُحمِّله مسؤولية العمل من أجله، فيرضى عنه ويكرمه إن استفرغ جهده وكابد مشقة القيام به، ويغضب منه ويعذبه إن تقاعس عن ذلك ولم يُقدِّر المسؤولية التي حمَّله الله إياها. فالله تعالى لن يحاسب الناس عن سبب عدم تحقيقهم كل المصالح، ودفع كل المفاسد، وإنما سيحاسبهم عن سبب عدم استشعار ثقل أمانة التكليف الإلهي لهم بذلك، وعن سبب عدم الاجتهاد –قدر المستطاع– من دون تراخٍ أو تقصير لفعل ما أُمروا به، وترك ما نُهوا عنه.

وسعياً لتأطير مقاصد الشريعة بالمقصد الأساس الذي هو الاستخلاف، يمكننا استحضار بُعْد التكليف والابتلاء عند صياغة أي مقصد، على نحو المثالين الآتيين:

– المقصد العام للشريعة الإسلامية هو تكليف الإنسان بجلب المصالح، ودفع المفاسد.

– المقصد الشرعي من وضع الشريعة هو تكليف الإنسان بإخراج نفسه عن داعية هواه؛ ليكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً.

## ٣. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للعمران الإنساني والإسلامي:

### أ. الاستخلاف مقصد عام للعمران الإنساني:

لقد ربط الله مهمة استخلاف الإنسان بمجال الأرض التي سيعيش على ظهرها، ويقتات من ثمارها ومنتوجاتها، ويستفيد من عطاءات أنهارها وبحارها وسهولها وجبالها؛

---

[١٩] ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد. **الفوائد في اختصار المقاصد**، تحقيق: إياد خالد الطباع، دمشق: دار الفكر، ١٤١٦هـ، ص١٤٣.

ليتمكن من ممارسة أمانة الاستخلاف عليها، التي تضم على رأس مسؤولياتها الأساسية التفكر في آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق، والتعرُّف من خلالها -متضافرة مع آيات الوحي إذا بلغته- إلى الله، وطريقة عبادته مثلما شرع، فضلاً عن تحمُّل مسؤولية حسن استغلال ما يتوافر على سطح الأرض وباطنها من ثروات ومعادن؛ قياماً بواجب الحفاظ على حياته، وتأمين مختلف حاجاته؛ من: الغذاء، والسكن، واللباس، وطلب العلم النافع، والتماس العلاج الطبي، وضمان ترقية وجوده بتطوير العلوم الزراعية والصناعية.

فهذه المهمة العمرانية يضطلع بها الجنس البشري، في إطار استخلاف الله إياه على الأرض، الذي قد يمارسه اعتماداً على مجرد عقله، والتجارب المتوارثة عبر تاريخ الإنسانية، ونتائجها المتراكمة في مختلف مجالات الحياة، أو استناداً إلى الفهم السائد لتعاليم الوحي وفقه مقاصده، فيكون سعيه فيها صلاحاً ورخاءً وأمناً، أو فساداً وشقاءً واضطراباً، فيجني ثمار نهجه العاجلة فوق الأرض، ويتعرض لحساب الله الآجل في الدار الآخرة.

وتأسيساً على ذلك، فإن عمارة الأرض تغدو وحدها المقصد المهيمن في إطار الاستخلاف الوضعي القائم على أساس المناهج الفكرية البشرية، المنكرة لوجود الله ولشرعه وحسابه لخلقه من الآدميين، أو المستند إلى تعاليم الأديان السماوية المحرفة، وكذا الأديان الأرضية المجافية لمضمون الوحي الصحيح.

وقد عرفت البشرية -على امتداد وجودها إلى اليوم- ميلاً شديداً لاتخاذ منظومات اعتقادية وفلسفية، تحصر همها ومنتهى سعيها في دائرة الحياة الدنيا، وتقصِّي الإيمان بالغيب والبعث بعد الموت، والخضوع للحساب ثم الجزاء والعقاب ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ (الروم: ٧-٨)؛ فقوله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} "يعني علمهم منحصر في الدنيا، وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها."[٢٠]

[٢٠] الرازي، **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، ج٢٥، ص٨١.

وهؤلاء هم أصحاب الدنيا الذين آثروا القيام بمهام الاستخلاف؛ بحبس هممهم، وحصر تطلعات نفوسهم داخل الواقع الأرضي المحدود باللحد في القبور، فتحمَّلوا مسؤولية فهمهم الخطأ، فخابوا في الدنيا، وخسروا في الآخرة.

وخلاصة القول إن الفعل البشري العمراني -في أي اتجاه جرى زماناً ومكاناً- يمثل المقصد العام لله من استخلاف الإنسان في الأرض.

## ب. الاستخلاف مقصد عام للعمران الإسلامي:

إذا كانت الإنسانية تمارس مهام العمران في الأرض، في ظل مناهج فكرية وضعية، أو انطلاقاً من بقايا ديانات سماوية أو أرضية؛ فإن المسلمين ينهضون بأعباء العمران بتوجيه من تعاليم الوحي الخاتم، الذي يُلزِم أتباعه بإعمار الدنيا بالدين، وإقامة الدين في الدنيا التي جعلها الله تعالى مزرعة للآخرة، ولا مهرب من العبور منها إلى الدار الآخرة. فالدنيا والآخرة يلتحمان في منظور الإسلام، ويمتزجان في سلوك المسلم ويتكاملان حتى يتمكن من القيام بأعباء الخلافة على الأرض وَفقاً للوجه الإيماني الصحيح.

وقد رسم القرآن الكريم المنهج الإسلامي لابتغاء الحياة الآخرة الباقية بالعمل في الحياة الأولى الفانية ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ (القصص: ٧٧). فالمسلك الأصوب هو أن يكون قصد المؤمن بكل ما أوتي من مال وصحة وجاهٍ وعلم وخبرة، وبكل ما يبني ويشيد، وما يبيع وما يشتري، وما يبرم من عقود ويعطي من عهود، هو نيل رضى الله، والفوز بنعيم الدار الآخرة الدائمة، والاحتراز من التوسل إلى شيء من مكاسب الدنيا بما يفسدها ولا يحل في شرع الله.

فالدنيا دار ابتلاء وامتحان، والآخرة دار ثواب وجزاء، وهي وكل ما يشغل المُكلَّف في أرجائها فتنة شديدة، قد لا يفلح في مواجهتها إلا بمجاهدة ومعاناة مستمرة، وما ينجم عنهما من توفيق الله وتثبيته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ (الملك: ٢)، ومن ذلك "أن موقع الدنيا من حيث الترتيب الزمني بالنسبة

للآخرة يعد من أقوى عوامل الابتلاء. فالنفس البشرية تؤْثر العاجل على الآجل، وتتسرع في الأمر كله، وهو ما يقوي افتتانها بالدنيا وانشغالها بها دون الآخرة المتأخرة زمنياً. ثم إن الدنيا -معيشة ومشاهدة- تملك على الإنسان السمع والبصر والفؤاد، يلتذ بأطايبها، ويتنفس هواءها، ويرى سريعاً نتائج سعيه فيها، ويكابد محنها، ويحس ضغوطها عليه، ويعاني من حاجاتها وضروراتها الملحة والمتكررة. لهذه الأسباب يجد الإنسان نفسه منغمساً في طلب الدنيا، متورطاً في حُبها بدافع غريزة حُب البقاء، وبحكم الاندماج التام بين الحياة ذاتها، وطبيعتها الدنيوية."[21]

والمسلم يؤمن بأن خلافته النسبية عن الله -كما سلف- لا تجعل مهامه العمرانية تفاعلاً بينه وبين الطبيعة ومكوناتها فحسب، بل تفاعل بين جهده المحدود وشرع الله وقدرته وإرادته. فالمساحة التي استخلف الله فيها الإنسان لا تخرج عن دائرة القصد والنية، وما يفعله بعد ذلك فهو بإقدار الله له وتيسيره عليه. يقول الفضيل بن عياض: "إنما يريد الله ﷻ منك نيتك وإرادتك."[22]

وقد ذهب علال الفاسي إلى اعتبار عمارة الأرض مقصداً عاماً للشريعة الإسلامية، فقال: "والمقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع."[23] فربط عمارة الأرض بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بمختلف التكاليف الإسلامية في مجالاتها المادية والروحية، جاعلاً المهام العمرانية كلها ضمن المقصد الاستخلافي الذي تَحدَّد قبل خلق آدم وحواء، وترسَّخ بالممارسة الفعلية خلال الإنجازات العمرانية المتميزة للحضارة الإسلامية.

[21] الأحمر، عبد السلام. **المسؤولية أساس التربية الإسلامية**، الرباط: مطبعة طوب بريس، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٣٣-٣٤.

[22] الحنبلي، ابن رجب. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١، ص٧١.

[23] الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م، ص٥٨-٥٩.

ولا شك في أنه من الخطأ المنهجي البيِّن أن نتحدث عن الإنجاز العمراني الإسلامي بمنأى عن بيان مدى ارتباطه وتوجُّهه بمقصد الاستخلاف، وانضباطه بقيمه السامية.

## ثالثاً: الاستخلاف بوصفه حافزاً أساسياً للنفس في بناء الحضارة

### ١. الاستخلاف حافز أساسي لبناء الحضارة ورقيها:

تمثل الحضارة خلاصة الممارسات الاستخلافية للكيانات البشرية المتعاقبة على وجه الأرض، بصرف النظر عن الزمان والمكان؛ فهي حصيلة تضافر الجهود الجماعية لأُمة ما، انطلاقاً من رؤية خاصة تمثل تصوراً معيناً للوجود والإنسان ودوره فيه، وتكون مستمدة من وحي إلهي، أو اجتهاد بشري. يقول ابن عاشور: "فالخليفة آدم وخلَفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي."[٢٤]

ويدور مضمون الرؤية الحضارية حول مبدأ مركزي تتشربه النفوس بالتربية والتنشئة الاجتماعية، ويمثل محركاً ثابتاً لها في اتجاه عمارة الأرض، ويسمى هذا المبدأ المحرك أيضاً روح الحضارة.

وكان غوستاف لوبون (١٨٤١م-١٩٣١م) أحد الذين أكدوا دور المعتقدات الدينية في نشأة الأُمم والحضارات؛ إذ قال: "وتَكوَّن من المعتقدات الدينية في كل وقت أهمُّ عنصر في حياة الأُمم، ومن ثم في تاريخها، وكان ظهور الآلهة وموتها أعظم الحوادث التاريخية، وتُولد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية في قديم الأجيال وحديثها."[٢٥] وأمَّا الحضارات التي لم تُبنَ على الدين فقد بُنِيت على موقف معين منه، مثل: العلمانية التي ترى فصل الدين عن الدنيا، والشيوعية التي تَعد الدين أفيوناً للشعوب.

---

[٢٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٣٩٩.

[٢٥] لوبون، غوستاف. **السنن النفسية لتطور الأمم**، ترجمة: عادل زعيتر، مصر: دار المعارف، ١٩٥٠م، ص١٥٧.

وفي هذا السياق، تقوم الحضارة الإسلامية على أساس الشريعة الإسلامية، وما تشتمل عليه من إيمان بالله وتوحيده؛ تنفيذاً لاستخلاف الله الإنسان على الأرض، بعد تسويته، والنفخ فيه من روحه، وتمكينه من اكتساب المعارف والخبرات؛ ما جعله أهلاً لتحمُّل أمانة الخلافة عن الله، بالاستقامة على الدين في نفسه ومجتمعه، والقيام بمسؤوليات عمارة الأرض، وإنشاء حضارة إيمانية رشيدة. وهذا يتطلب اكتساب وعي حضاري، هو "إدراك الفرد ومؤسسات المجتمع المختلفة لمسؤولياتهم الكبرى في بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة، والسعي في دفع عملية النهضة والتقدم المعنوي والمادي من خلال إصلاح الفكر والسلوك والواقع."[٢٦]

فالاستخلاف الإيماني يمثل حافزاً قوياً للإنسان إلى إعمار الأرض، بتنمية الخير والصلاح والهداية بين الناس، وتقليل الشر والحد من أسباب الفساد، وذلك عند تحرُّكه إلى العمل، باستشعار عِظم الأمانة التي طوَّق بها الله أعناق الآدميين، وربط صلاح الإنسان وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة بإدراك ثقلها وأساسيتها ومختلف أبعادها في الوجود الإنساني. فكل مقصد يُرَى بأنه يُحقِّق غايات إنسانية دنيوية وأُخروية، تزيد فاعليته عند ربطه بمقصد المسؤولية الاستخلافية التي تمثل مقصد الله من خلق الجنس البشري، وبسط سلطانه على الأرض، مُسخِّراً مُقدَّراتها في الخير كما في الشر، ومُصلِحاً فيها أو مُفسِداً.

وهذه المسؤولية الاستخلافية تلتزم نهج الإيمان بالله وعبادته لدى المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل عليهم السلام، والعمل على استحقاق رضا الله، والفوز بالاطمئنان النفسي في الدنيا، وبالمقام في جنات الخلد بعد النشر والحساب، وتتخذ نهوجاً مختلفة عند غير المؤمنين بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فالإيمان بالله يتحقق نتيجة الإحساس العميق بالمسؤولية تجاه الله الخالق الرازق المحيي المميت، الذي لا تعد أفضاله ونعمه على الإنسان؛ ما يُحتِّم عليه بذل ما يستطيع من

---

[٢٦] القحطاني، مسفر بن علي. **الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٢م، ص٦٦.

الجهد الفكري ليتعرَّف إلى الله تعالى، ويتعلم من الوحي كيف يقوم بحقه عليه، ويدخل نفسه في سلك طاعته وعبادته مثلما أراد وشرع.

والإيمان أيضاً يحصل نتيجة استشعار الإنسان مسؤوليته تجاه نفسه، التي إذا عرفت الله سبحانه، والتزمت بعبادته، وانتهت عمَّا يغضبه، أمنت عقابه الشديد، وظفرت بجزائه العظيم في نعيم جنانه. وأمَّا عبادة الله التي هي غاية الخضوع الطوعي لله مع حُبه فبها يمارس المؤمن مسؤولية تحمُّل عناء التكليف بها، والرغبة في أدائها بصدق وإخلاص؛ لينال رضا الله وأجره العظيم، ويتجنب سخطه وتبعات مَن تركها أو تهاون فيها.

فالعبادة إذن تأتي تنفيذاً لمقتضيات الإيمان بالله، الذي يكون بعد قيام الإنسان بالخطوة الأولى على طريق الاستخلاف، وهي ممارسة المسؤولية الحاسمة؛ باختيار التعرُّف إلى الله، والإيمان به، وعبادته مثلما شرع، والسير على نهجه مدى الحياة. والإنسان يمارس المسؤولية في إنشاء الأعمال التكليفية ابتداءً؛ لقول رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات... ،"[٢٧] وفي أدائها بإتقان، ثم إنهائها على أحسن حال.

وتجدر الإشارة إلى أن كل أعمال الآدميين على الأرض تُحقِّق المقصد الاستخلافي، من حيث إنها ممارسة -بوجه من الوجوه- لمسؤولية حرية الفعل، وتحمُّل نتائج اختياره ومعاناة أدائه، وما يترتب عليه من تنعُّم أو إيلام دنيا وأُخرى.

فإذا أيقن المؤمن بصدق وعد الله للطائعين بالجنة، ووعيده للعصاة بالجحيم؛ فإنه يتحفز لفعل أي أمر إلهي، واجتناب أي نهي، فيسترخص كل غالٍ، ويتحمَّل كل مشقة ومعاناة، ويكابد كل ما يعترض طريقه من صعاب ومتاعب.

ومن هنا نتبيَّن قيمة المسؤولية التي تنشأ في النفس ضمن إطار الاستخلاف الإيماني، مقارنةً بغيره من أنواع الاستخلاف الأخرى، وهو ما يُؤثِّر في الأفعال العمرانية التي يقوم بها المسلمون الصادقون؛ فتكون صلاحاً وبناءً ونماءً في مختلف ميادين الحياة، ورخاءً

[٢٧] البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، كتاب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب: بدء الوحي، حديث رقم١. وتتمة الحديث: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه". وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة بقوله: قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية...،" حديث رقم١٩٠٧.

وإحساناً وإسعاداً لكل أفراد المجتمع المسلم، ونشراً للهداية والعدل والرحمة والأخلاق الحميدة في العالمين.

## ٢. الحضارة بوصفها ممارسة استخلافية:

لا تقتصر الحضارة فقط على الإنجازات المادية التي تمثل المستوى الفكري والمهاري للأُمة التي أسهمت في بنائها، وإنما هي أكثر من ذلك تنفيذ -بوعي أو من دونه- لمهمة الاستخلاف على الأرض، التي نشأت عن إرادة جماعية، وفهم معين لدور الإنسان في الوجود، وتأكّدت وترسَّخت في النفوس خلال السنين والحقب، فأفرزت معارفَ وعلوماً وفنوناً وقيماً وعاداتٍ وأخلاقاً، تمثل بمجموعها دلالة خاصة لأمانة الاستخلاف، وممارسة كاملة لها.

ومثلما تخضع لتأثير الأشخاص فيها، فإنهم يخضعون أيضاً لتأثيراتها فيهم، ولا سيما الصغار الذين يستوعبون إيحاءاتها بعفوية، وتنساب قيمها وأخلاقها في نفوسهم، وتنطبع فيها على الدوام. لذلك يعد بناء الأجيال وإعدادها لحمل الأمانات والنهوض بالمسؤوليات العمرانية، أهم إنجازات الأديان والحضارات بلا منازع؛ فها هم أنبياء الله يحرصون على صلاح ذرياتهم بحيث تسير على نهجهم من بعدهم؛ اقتداءً بإبراهيم عليه السلام الذي أوصى بنيه بالحفاظ على ملة الإسلام ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ (البقرة: ١٣٢-١٣٣).

ولهذا دخلت مهمة تربية الأجيال في صُلب بعض تعريفات الحضارة، مثلما نجد عند مالك بن نبي الذي يرى أنها "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه."[٢٨] فاستخلاف أجيال صالحة قادرة على الاستمرار في أداء المهام العمرانية للأُمة، أو الحفاظ على روح

[٢٨] ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، بيروت: دار الفكر، ط٥، ٢٠٠٥م، ص٥٠.

حضارتها، بل إصلاح ما فسد من رؤيتها الاستخلافية، والحيلولة دون اهتزاز أساسها في نفوسهم؛ يعد من أهم مسؤوليات الاستخلاف على الأرض؛ إذ أساس العمران قائم بالنفوس، فإذا لحقه تبدل وتغير، تغيرت تبعاً له الأوضاع العامة، واضطربت مسيرة الأُمة، وتراجع عطاؤها الحضاري وَفق سنن الله الغالبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الرعد: ١١)، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ (الإسراء: ١٦).

فالله تعالى استخلف الإنسان في نفسه ودينه إلى جانب استخلافه على الأرض، ليبدأ بإصلاح نفسه بالدين، وهو يُعدها لخوض غمار الإصلاح الحضاري. وإعداد النفس للقيام بالواجبات الإعمارية يرتكز على إحياء حس المسؤولية فيها وتنميتها، عن طريق التربية والتعليم، وممارسة الدين؛ اعتقاداً، وعباداتٍ، وأخلاقاً، لمَن بلغتهم الرسالات السماوية، أو اعتماداً على الفطرة والعقل وحدهما، والتفاعل النفسي مع تحديات الواقع. وفي هذا الصدد، يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (١٨٨٩م-١٩٧٥م): "إن التفسير الوحيد الذي يشرح لنا تماماً فكرة النشوء الحضاري، تفسير نفسي النزعة، قائم على مفهوم التحدي والاستجابة: تحدٍّ من الطبيعة والظروف البيئية والاجتماعية الصعبة، واستجابة ناجحة من طرف الإنسان؛ أي رد التحدي الخارجي بالتحدي البشري النفسي، على هذه العوارض في طريق الانطلاق الحضاري."[٢٩]

وما دام الاستخلاف الإنساني ممارسة للمسؤولية العمرانية وجميع الواجبات المتفرعة عنها، فإن الأُمم لا تنفك عن بلورة مدلولات خاصة بها لمعنى المسؤولية، تتحرك بها في إقامة حضاراتها، وتدل طبيعة تمدنها في الواقع على مدى تقديرها لقيمة المسؤولية، فكلما وجدت لديها إنجازات عمرانية راقية افترض معها وجود حس مرتفع للمسؤولية لدى أفرادها. فإذا تشبَّعت النفس بقيمة المسؤولية سهُل عليها اكتساب أي صفة حميدة أو

---

[٢٩] انظر مقال:

- "فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي"، **مجلة دعوة الحق**، عدد٤٦، موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الإلكتروني، المغرب:

- http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/1054.

خلق رفيع، فغدت متصفة بحُب العمل وإتقانه، والوفاء بالالتزامات والعهود والعقود، والتضحية بالوقت والجهد والمال لخدمة الوطن والمصلحة العامة، فضلاً عن اتصافها ببغض الظلم، والغش، والكذب، والزور، والقبائح كلها.

وفي حال نهوض الأُمة بمسؤولياتها التربوية الإصلاحية، داخل الوطن الإسلامي وخارجه، فإنها تصبح أهلاً لاستحقاق الاستخلاف الرسالي على الأرض بين الأُمم الأخرى، فتقيم حضارة الإيمان والعقل، والعدل والإحسان، وسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ (النور: ٥٥).

وأمَّا إذا تراخت الأُمة في تحمُّل مسؤولية الهداية والإصلاح لنفسها وغيرها، فإن الأزمات والنكبات تتوالى عليها، وتتلاشى قوتها، وتختل أوضاعها، حتى تعود من جديد لحمل أمانة الاستخلاف الرسالي الذي هو قدرها إلى يوم الدين.

**خاتمة:**

هدف البحث إلى إبراز إمكانية الانطلاق من مهمة الاستخلاف على الأرض بوصفها المقصد الأساس الذي تتفرع عنه جميع المقاصد الإلهية الأخرى؛ سواء أكانت إنسانية عامة أم إسلامية خاصة، وبيان مدى استيعابه لغيره من المقاصد الإسلامية القرآنية والشرعية والحضارية. وقد انتهى البحث إلى ترجيح أن الاستخلاف بالمعنى العام يحتمل معنى النيابة عن الله في حدود ضيقة، تمنح فيها الإنسان حرية الاختيار، التي يكون بها مسؤولاً -حال المثول بين يدي الله تعالى- عن إرادته ومعتقده (إيماناً، أو كفراً)، وعن سلوكه؛ صلاحاً، وفساداً.

والاستخلاف بالمعنى الخاص هو تكليف واختبار للفئة المؤمنة، إذا تهيأت لها الظروف المواتية، للاضطلاع بمهام الريادة والقيادة لغيرها من الأُمم الأخرى. فالمقصد الأول لله من خلق الإنسان كان واضحاً حين أخبر الملائكة أنه سيستخلفه على الأرض،

وأنه سيكون من أفعاله الإفساد فيها، وسفك الدماء، التي هي نتيجة لما يتصف به من الحرية والمسؤولية، وأن هاتين الصفتين (الحرية، والمسؤولية) هما اللتان تتيحان للإنسان حمل الأمانة التي استثقلتها السماوات والأرض والجبال.

وقد خلص البحث إلى أن مقصد استخلاف الإنسان على الأرض هو أساس كل مقصد يأتي بعده، وأنه لا يمكن أن يخرج عن إطاره، أو يختلف عنه في قليل أو كثير، لكنه سيكون بالضرورة بياناً وتفصيلاً لما يختزله مفهوم "الاستخلاف" من معانٍ ومسؤوليات وغايات مُبيِّنة وشارحة لحقائقه وكلياته وجزئياته. فالإيمان الذي يعد مقصداً قرآنياً عاماً يمثل ممارسة استخلافية تأسيسية لكثير من التصورات الاعتقادية والفكرية وأفعال القلب والجوارح التي دعا إليها القرآن الكريم، وصارت من مقاصده المعلومة، مثل: توحيد الله، والخوف منه، ورجاؤه، والتقوى، والتوبة، والصدقة، والصلاة، والصوم، والحج.

وكل هذه المقاصد وأمثالها تعد امتداداً لمقصد الاستخلاف، وتطبيقاً سلوكياً له؛ فبوساطتها، وعن طريق الامتثال لها وتمثلها في الفكر والسلوك، يترسَّخ مقصد أساسي واحد هو المسؤولية الاستخلافية التي تتخذ صوراً عدَّة؛ سواء كانت معتقدات قلبية، أو التزامات سلوكية، أو مزيجاً بينهما.

ويرى الباحث أن استخلاف الله الإنسان على الأرض يعد أيضاً استخلافاً لـمَن بلغه الوحي على شريعته، يؤمن بها، ويتفقه فيها، ويُطبِّق أحكامها في مجالات حياته المختلفة. وعلى هذا، فإن جميع مقاصد الشريعة العامة والجزئية لا يمكن إلا أن تكون موصولة بمقصد الاستخلاف، ومؤكدة إياه في واقع التدين؛ اعتقاداً، وعبادةً، ومعاملاتٍ.

وبوجه عام، فإن الإنسان يضطلع بالمهمة العمرانية، في إطار استخلاف الله إياه على الأرض، الذي قد يمارسه اعتماداً على مجرد عقله، أو استناداً إلى تعاليم الوحي وفقه مقاصده، فيكون سعيه فيها صلاحاً ورخاءً وأمناً، أو فساداً وشقاءً واضطراباً، فيجني ثمار نهجه العاجلة فوق الأرض، ويتعرض لحساب الله الآجل في الدار الآخرة.

ختاماً، فإن الاستخلاف الإيماني لا بُدَّ أن يكون حافزاً قوياً للمسلم إلى إعمار الأرض؛ بتنمية الخير والصلاح والهداية بين الناس، والحد من الشر وأسباب الفساد،

وذلك حين يسعى إلى العمل مُستشعِراً عِظم الأمانة الاستخلافية، وموقِناً أن صلاح الإنسان وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة يكون بإدراك ثقلها وحسابها الشديد، ومختلف أبعادها في الوجود الإنساني. وهكذا عرض البحث مفهوماً واسعاً للاستخلاف على الأرض، شمل مطلق الإنسان على اختلاف نهجه في الحياة، فضلاً عن استعراض الملامح العامة لمواءمة مبدأ الاستخلاف بحيث يكون مقصداً أساسياً شاملاً المقاصد العامة لكل من: القرآن الكريم، والشريعة، والحضارة الإنسانية، والحضارة الإسلامية؛ ما يفتح الباب واسعاً أمام البحث والتمحيص وتقصِّي مدى قدرة الاستخلاف حقاً على تأطير جميع المقاصد الجزئية للقرآن الكريم، والشريعة، والحضارة، وغير ذلك من المجالات الأخرى.

وأمَّا أهم ما يمكن استخلاصه من هذا البحث فهو استنهاض همم العلماء والباحثين في مجال الدراسات المقاصدية، لاستفراغ الجهد في التوصل إلى مقصد واحد عام جامع للمقاصد الإسلامية كلها؛ سواء كان هو الاستخلاف نفسه، أو غيره من المقاصد؛ وذلك سعياً للخروج من حالة التشتت الفكري والمنهجي التي تمنع حسن استثمار النهج المقاصدي في تطوير المعرفة الإسلامية وتجديدها، وتفعيل توظيفها في التأطير والتحفيز إلى نهضة فكرية حضارية رشيدة معاصرة.